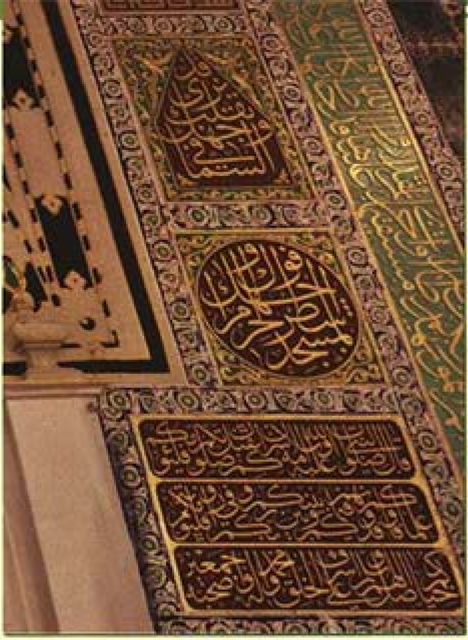
سلسلة النبي وأهل بيته قدوة وأسوة

٨



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

الإمام الصادق عليه السلام

قدوة وأسوة

الإمام الصادق عليه السلام

قدوة وأسوة

سِلسلة النّبي وأهل بيته قُدوة وأسوة - ٨

الإمام الصادق عليه السلام

قُدوةٌ وأُسوةٌ

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرّسي

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

هوية الكتاب:

* الكتاب: الإمام الصادق عليه السلام قدوة وأسوة.
* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
* الناشر: مركز العصر للثقافة والنشر، لبنان، بيروت. (alasrr@gmail.com).
دار كميل للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، طريق المطار،
ص.ب: ١١ /٧٩٥٧ (dar_komail@yahoo.com).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

تمهيد

توافق هذه الليلة -التي أشرع فيها بسرد قضية تاريخية جليلة عن حياة الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام- الخامس والعشرين من شهر شوال لسنة ١٣٨٦ هجرية، حيث يحتفي العالم الجعفري بتجديد ذكرى وفاة سادس أئمته ويفتخر بشرف الانتماء إليه مبدأً ومذهباً.

وإني إذ أُقَدِّمُ أشجى التعازي إلى المسلمين عامة، والجعفريين خاصة، أرجو من الله العلي القدير أن يُسدِّدَهم في اتخاذ مبادئ صاحب هذه الذكرى المفجعة، ويهديهم للعمل الجاد بتعاليمه ومناهجه.

وبالتالي فإني أُشرِّف قلمي بالكتابة عنه، مشاطرةً مني في تجديد الذكرى مع الأمة الإسلامية، ولدعم المجتمع الإسلامي بالثقافة الحقة التي شرعها لنا ربّ السماء ورسوله، ومن ثم تأدية لمسؤوليتي تجاه مبدئي والحق الذي يُمَثِّلُهُ، وليس سدّاً لثغرة في التاريخ، فهناك عدد من الكتب الحديثة عالجت قضية الإمام الصادق عليه السلام ومذهبه ومذهب تابعيه بشتى الأساليب والصور.

الفصل الأول

الأصل الكريم

ميلاده:

كانت الأمة الإسلامية تحتفل بالذكرى الثمانين[1] من مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، في السابع عشر من شهر ربيع الأول، وكانت تسير في بيت الرسالة موجةٌ كريمةٌ من السرور والابتهاج، ترتقب مجداً يهبط عليها فيزيدها رفعةً وشموخاً.

في تلك الليلة، وفي ذلك الجو الميمون؛ ولد الإمام الصادق عليه السلام شعلةَ نورٍ بازغةً سخت بها إرادة السماء لتُضيء لأهل الأرض، وتُنير سبلها إلى الخير والسلام.

أبــواه:

ولد من أبوين كريمين عظيمين مباركين هما:

١ - الإمام محمد بن علي بن الحسين بن علي؛ الباقر عليه السلام، الذي انحدر من سلالة علي أباً وأمّاً، حيث كان حفيد الحسين بن علي، وكانت أمه حفيدة الحسن عليه السلام. وهكذا بُني أول بيت فاطمي أصيل، فكان

(١) يقول بعض المحققين: إن أقرب الروايات إلى الحقيقة في تاريخ ميلاد الصادق عليه السلام هي التي تحدده بسنة (٨٠) هجرية. وهناك روايتان أُخريَان ٨٣ و ٧٧ غير معتمد عليهما.

أشمّ وأروع قمة إنسانية ارتفعت على بيت الرسالة.

٢ - فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، التي كانت هي الأخرى أول نقية من سلالة أبي بكر أمًّا وأباً. وجدها محمد بن أبي بكر كان له سابقة الجهاد بين يدي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان ربيباً له حيث تزوج الإمام بعد موت أبي بكر زوجته أسماء بنت عميس، فربّى ولدها محمد في حجره، وغذّاه من علومه، حتى أصبح فدائيًّا مخلصاً للإسلام، وولّاه مصراً فقُتِلَ فيها بأمر من معاوية.

وهكذا يأتي الإمام عصارة جهاد مقدس، من أب وأم منحدرين من سلالة مباركة.

نشأته:

لقد كانت ولادته في عصر جده الإمام زين العابدين الذي ملأ الآفاق فضله ومجده، ولم يزل في كنفه الوديع الذي كان يُوحي إليه كل معاني السمو والعظمة، ويغذيه بكل معاني الفضل والكمال، ولم يزل يرى من جده العبادة والزّهادة والرّفادة والاجتهاد في طاعة الله فتنطبع في نفسه آثارها، حتى بلغ سن الثانية عشر.

وعندما انتقلت إلى أبيه مقاليد الإمامة العامة، وقام عليه السلام بأداء واجباتها ومسؤولياتها خير قيام، كان الإمام الصادق عليه السلام يترعرع ليصبح فتاً نموذجيًّا يرمقه الشيعة بأبصارهم ويرون فيه القدوة السادسة لهم.

سفرته إلى الشام:

لقد كان الأمويون في الفترة الأخيرة من تسلطهم -حيث

اختلفت على الأمة الإسلامية التيارات الفكرية المتناقضة - يمارسون آخر محاولاتهم لتمويه الحقائق وإثبات المتناقضات، ويعالجون الأحداث السياسية على ضوء سياسة أسلافهم المنحرفين، والعجيب من أمرهم أنّهم في تلك الحقبة كانوا يُبدِّلون أزياء الخلافة كما تتبدل السنين، فلا تكاد تقبل سنة جديدة على الناس إلّا بخليفة جديد؛ لأن الأمة تلفظهم وتأبى الخضوع لسيادتهم الباطلة.

في هذا العصر -بالذات- قاسى الإمام الباقر عليه السلام من ظلم الأمويين الشيء الكثير، لأنه كان مأوى الحق وأهله ومركز المضطهدين، الذين عارضوا سياسة الأمويين كما يتبيَّن ذلك من سيرته المقدسة.

أما الشيعة فقد ابتُلوا بلاءً عظيماً من جرَّاء الظلم الأموي، كما بيَّن الإمام الباقر عليه السلام حين قال: «**ثُمَّ جَاءَ الحَجَّاجُ فَقَتَلَهُمْ** -يعني الشيعة- **كُلَّ قِتْلَةٍ، وَأَخَذَهُمْ بِكُلِّ ظِنَّةٍ وَتُهَمَةٍ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُقَالُ لَهُ زِنْدِيقٌ أَوْ كَافِرٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُقَالَ شِيعَةُ عَلِيٍّ عليه السلام**»(1).

ولأن الخليفة الأموي أراد إثبات سلطته على الإمام الباقر عليه السلام واستعراض قوته أمامه -مثلما يصنعه الحاكم السياسي الظالم اليوم بمن يعارضه في الأمر- قام باستدعائه إلى الشام، فسافر الإمام عليه السلام إليها مصطحباً ولده العزيز.

(1) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٦٨.

الفصل الثاني

عهد إمامته

في سنة (١١٧هـ) –حيث انتقل الإمام الباقر عليه السلام إلى جوار ربه ضحية غالية لسياسة بني أمية الجائرة– أوصى إلى ولده الصادق عليه السلام وهو في سن الرابعة والثلاثين بمدرسته التي اجتمعت عليها المئات من ذوي الفكر والبصيرة، حتى كانت نواة المدرسة الكبرى التي أسَّسها الإمام الصادق عليه السلام من بعد أبيه، كما أوصى له بالإمامة. وبهذا انتقلت إلى الإمام الصادق عليه السلام قيادة الأمة الدينية ومسؤولياتها السياسية الكبيرة.

المدرسة الكبرى:

لعلنا لن نجد في التاريخ الإنساني مدرسة فكرية استطاعت أن تُوجِّه الأجيال المتطاولة، وتفرض عليها مبادئها وأفكارها، ثم تبني أمة حضارية مُتوحِّدة لها كيانها وذاتيتها، مثلما صنعته مدرسة الإمام الصادق عليه السلام.

إن من الخطأ أن نُحدِّد إنجازات هذه المدرسة فيمن درس فيها وأخذ منها من معاصريها وإن كانوا كثيرين جدًّا، وإنما بما خلّفته من أفكار، وبما صنعته من رجال غيّروا وجه التاريخ ووجهوا أمته، بل وكوّنوا حضارته التي ظلت قروناً مستطيلة.

لقد أثبت التاريخ أن الذين استقوا من أفكار هذه المدرسة مباشرة كانوا أربعة آلاف طالب[1]. ولكن ذلك لا يهمنا بمقدار ما يهمنا معرفة ما كان لهذه المدرسة من تأثير في تثقيف الأمة الإسلامية التي عاصرتها والتي تلتها إلى اليوم، وإن الثقافة الإسلامية الأصيلة كانت جارية عنها فقط، حيث أثبتت البحوث أن غيرها من الثقافات المنتشرة بين المسلمين إنما انحدرت عن الأفكار المسيحية واليهودية بسبب الدَّاخلين منهم، أو ملونة بصبغة الفلاسفة اليونان والهنود الذين تُرجمت كتبهم إلى العربية، فبنى المسلمون عليها أفكارهم وكوَّنوا بها مبادئهم.

ولم تبقَ مدرسة فكرية إسلامية حافظت على ذاتيتها ووحدتها وأصالتها في جميع شؤون الحياة كما بقيت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، ذلك لثقة التابعين بها وبأفكارها، مما دفعهم إلى الحفاوة بها وبملامحها الخاصة عبر قرون طويلة، حتى أنهم كانوا ينقلون عنها الروايات فماً بفم، وإذا كتبوا شيئاً لا ينشرونه إلَّا بعد الإجازة الخاصة ممن رووا الأفكار عنه.

وإذا عرفنا أن الثقافة الإسلامية -الشيعية منها أو السنّية- كانت ولا زالت تعتمد على الأئمة من معاصري الإمام الصادق عليه السلام كالأئمة الأربعة ممن توقَّف المسلمون على مذاهبهم فقط، وبالتالي عرفنا أن معظم هؤلاء الأئمة أخذوا من هذه المدرسة أفكارهم الدينية، حتى أن ابن أبي الحديد أثبت أن علم المذاهب الأربعة راجع إلى الإمام الصادق في الفقه. وقد قال المؤرخ الشهير أبو نعيم الأصفهاني: «روى عن جعفر

(١) لقد جمع الحافظ ابن عقدة الزيدي أسماء الرواة عن أبي عبد الله عليه السلام فكانوا أربعة آلاف، وجاء ابن الغضائري فاستدل على ابن عقدة فزاد عليهم.

عدة من التابعين منهم: يحيى بن سعيد الأنصاري، وأيوب السختياني، وأبان بن تغلب، وأبو عمرو بن العلاء، ويزيد بن عبد الله بن هاد، وحدَّث عنه الأئمة الأعلام: مالك بن أنس، وشعبة الحجاج، وسفيان الثوري، وابن جريح، وعبد الله بن عمر، وروح بن القاسم، وسفيان بن عيينه، وسليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر، وحاتم بن إسماعيل، وعبدالعزيز بن المختار، ووهب بن خالد، وإبراهيم بن طهمان، في آخرين، وأخرج عنه مسلم بن الحجاج في صحيحه محتجاً بحديثه»[1].

إذا عرفنا ذلك صح لنا القول بأن الثقافة الإسلامية الأصيلة ترجع إلى الإمام الصادق عليه السلام وإلى مدرسته فقط.

ومن جانب آخر إذا عرفنا أن تلميذاً واحداً من الملتحقين بهذه المدرسة ألّف زهاء خمسمائة رسالة في الرياضيات كلها من إملاء الإمام الصادق عليه السلام، وهو جابر بن حيان المعلم الرياضي الشهير الذي لا يزال العالم يعرف له فضلاً كبيراً على هذه العلوم وأيادي طويلة على أهلها.

وروى عنه محمد بن مسلم ستة عشر ألف حديث في مختلف العلوم، وآخرون من هؤلاء الأفذاذ، حتى قال قائلهم رأيت في هذا المسجد -أي مسجد الكوفة- تسعمائة شيخ كل يقول: «قال: جعفر بن محمد». حتى أن أبا حنيفة كان يقول:

«لولا السَّنتان لهلك النُّعمان».

وأخيراً عرفنا أنه لم يُرْوَ عن أحد من الأئمة الاثني عشر -بل عن

(١) حلية الأولياء: (٣/ ١٩٩).

المعصومين الأربعة عشر وفيهم رسول الله ﷺ - بقدر ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام. ولقد جمع المتأخرون من الشيعة ما رُوي عنهم في مجلدات ضخمة: فكان البحار للمجلسي يحوي مائة وعشرة مجلدات، وكان جامع الأخبار للنراقي مثيلاً له، وكان مستدرك البحار نظيراً له، وقد احتوت غالبية هذه الكتب ونظائرها على أحاديث الإمام الصادق عليه السلام وأكثرها في الفقه والحكمة والتفسير وما إلى ذلك.

أما في سائر العلوم فلم يصل إلى أيدينا إلّا الشيء القليل، حيث ذهب معظمها ضحية الخلاف السياسي الذي أعقب عصر الإمام، فكم من كتب مخطوطة للشيعة أحرقتها نيران المنحرفين، وكان نصيب مكاتب الفاطميين بمصر أكثر من ثلاثة ملايين كتاب مخطوط، وكم من كتب لفَّتها أمواج دجلة والفرات وأحرقتها مطامع العباسيين ببغداد والكوفة، وكم من محدّث واسع المعرفة جمّ الثقافة ظلت العلوم هائجة في فؤاده لا يستطيع لها نشراً خوفاً من إرهاب العباسيين وإجرامهم، فهذا ابن أبي عمير ظلّ في سجون بني العباس مدة طويلة -ومن المؤسف- أن الكتب التي كتبها هُجِرَتْ في هذه المدة حتى عفنت وأكلها التراب، وراحت أحاديث كثيرة منها صحيحة الأعمال. وهذا محمد بن مسلم حفظ ثلاثين ألف حديث عن الإمام الصادق ولم يَرْوِ منها شيئاً.

إذا عرفنا كل ذلك أمكننا معرفة مدى شمول ثقافة هذه المدرسة للعالم الإسلامي ومدى سعة أفقها الرحيب.

والمشهور أن منهاج الإمام الصادق عليه السلام كان يوافق أحدث مناهج التربية والتعليم في العالم، حيث ضمَّت حوزته اختصاصيين كهشام بن الحكم الذي تخصَّص في المباحث النظرية، وتخصص زُرارة

ومحمد بن مسلم وأشباههم في المسائل الدينية، كما تخصَّص جابر بن حيان في الرياضيات، وعلى هذا الترتيب.

حتى أنه كان يأتيه الرجل فيسأله عما يريد من نوع الثقافة، فيقول الفقه فيدله على أخصائيِّه، أو التفسير فيومئ إلى صاحبه، أو الحديث والسيرة، أو الرياضيات، أو الطب، أو الكيمياء، فيشير إلى تلامذته الأخصائيين، فيذهب الرجل بملازمة من أراد حتى يخرج رجلاً قديراً بارعاً في ذلك الفن.

ولم يكن الوافدون إليه من أهل قطر خاص، فلقد كانت طبيعة العالم الإسلامي في عصره تقضي على الأمة بتوسيع الثقافة والعلم والمعرفة في كل بيت. حيث إن الفتوحات المتلاحقة التي فتحت على المسلمين أبواباً جديدة من طرق العيش، وعادات الخلق، وأفكار الأمم، كانت تسبب احتكاكاً جديداً للأفكار الإسلامية بالنظريات الأخرى، ولسبيل الحياة عند المسلمين بعادات الفرس والروم وغيرهما من جارات الدولة الإسلامية، كما خلقت مجتمعاً حديثاً امتزج فيه المتأثر العميق بالوضع، والمنحرف الكامل عن الإسلام، مما سبَّب حدوث تناقضات في الحياة، قد تُرديه وتُحدث لديه انعكاسات سيئة جدًّا لذلك الامتزاج الطبيعي المفاجئ.

لذلك هرعت الأمة يومئذ إلى العلم والثقافة والتصقت بأبي عبدالله الصادق عليه السلام مؤملة الخصب الموفور، ووفدت عليه من أطراف العالم الإسلامي طوائف مختلفة، وساعدهم على المثول عنده مركزه الحساس، حيث اختار -في الأعم الأغلب- مدينة الرسول صلى الله عليه وآله التي كانت تمثِّل العصب الحساس في العالم الإسلامي، ففي

كل سنة كانت وفود المسلمين تتقاطر على الحرمين لتأدية مناسك الحج المفروضة ولحل مسائلهم الفقهية والفكرية، فيلتقون بصادق أهل البيت عليه السلام وبمدرسته الكبرى حيث يجدون عنده كل ما يريدون.

ويجدر بنا المقام هنا أن نشير إجمالاً إلى موجة الإلحاد التي زحفت على العالم الإسلامي في عهد الإمام الصادق عليه السلام، وقد اصطدمت بمدرسته، فإذا بها الصَّدّ المتين، والسَّد الرصين، الذي حطَّم قواها وجعلها رذاذاً. ولأننا نحاول أن نلخّص حياة إمامنا العظيم ونُحدِّد ملامح مدرسته الكبرى، يلزم أن نُلِمّ بموجز لهذه الموجة الشاملة.

لقد أشرنا قريباً إلى أن الفتوحات الإسلامية سبَّبت احتكاكاً عنيفاً بين المسلمين والداخلين، ولأن أغلب المسلمين لم يكونوا قد تفهموا الإسلام تفهماً قوياً، ولا وعوه وعياً مستوعباً، فإن نتيجة هذا الاصطدام كانت سيئة، إذ أدّى إلى تشعب المسلمين إلى فرقتين:

الأولى: المحافظون المتزمتون الذين اتخذوا ظاهر الدين ولم يتفهموا جوهره وحقيقته، فإذا بهم يفقدون عقولهم ويفقدون معها مقاييس الأشياء، وكانت الخوارج من فرسان هذا الاتجاه، كما كانت الأشاعرة مع ملاحظة ما بين طوائفهم من اختلاف في الكمية والكيفية.

والثانية: المتطورون المفرطون الذين بالغوا في التأثر بالوضع وألغوا المقاييس، واكتفوا بما أوحت إليهم عقولهم الناقصة، حسب اختلاف النزعات وتطور الظروف، وكان في مقدمتهم الملحدون ثم -مع اختلاف كثير- كانت المعتزلة ومن إليهم من الفرق الأخرى.

وبطبيعة الحال كان الملحدون متسترين بسبب الوضع الاجتماعي

القاسي الذي يعتبر فيه المرتد أسوأ حالاً من الكافر الأصيل، وكانوا أقلاء في الوقت نفسه، بيد أنهم كانوا يستقون أفكارهم من فلسفة اليونان التي كان العرب لا يعرفونها حتى ذلك اليوم، وحيث تمت صلتهم بها عن طريق حركة الترجمة المنتشرة من عهد الإمام فصاعداً.

ولذلك كان القليل من المسلمين الذين تفهَّموا فلسفة الإسلام النظرية من جميع أبعادها، وعرفوا الاختلاف بينها وبين سائر النظريات، واستطاعوا أن يُقيموا الحجة البالغة على صحة مبادئ الإسلام الفكرية ودحض ما سواها.

وقد اصطدم هؤلاء بمن اقتصرت معلوماتهم على مجموعة من الأحاديث التي يروونها عن أبي هريرة أو غيره، غير مبالين بما فيها من تناقضات جمة، وكانوا يحسبون أنهم على حق، وأن لهم مقدرة كافية لإثبات مزاعمهم الباطلة، فترى أحدهم يُشكِّل حزباً ويدعو إليه الناس سرًّا.

لذلك تَحَتَّمَ على الإمام الوقوف في وجههم وتبديد مزاعمهم. فرسم ثلاثة خطط حكيمة لذلك:

الأولى: لقد خصّ فرعاً من مدرسته بالذين يعرفون فلسفة اليونان بصورة خاصة وغيرها بصورة عامة، ويعرفون وجهة نظر الإسلام إليها والحجج التي تنقضها، وكان من هؤلاء هشام بن الحكم المُفوَّه الشهير، وحمران بن أعين، ومحمد بن النعمان الأحول، وهشام بن سالم، وغيرهم من مشاهير علم الحكمة والكلام، العارفين بمقاييس الإسلام النظرية أيضاً.

الثانية: وكتب رسائل في ذلك، مثل رسالته المدعاة بـ(توحيد

المفضل)، ورسالته المسماة بـ(الإهليلجة) وما إليها.

التالثة: المواجهة الشخصية لزعماء فكرة الإلحاد. وباعتبار أن هذه العملية الأخيرة كانت أبلغ في مقابلة الموجة من اللتين سبقتا، لذلك يجدر بنا الوقوف عندها قليلاً لقراءة بعض القصص والأحداث المهمة:

١ - كان ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَابْنُ طَالُوتَ وَابْنُ الأَعْمَى وَابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي نَفَرٍ مِنَ الزَّنَادِقَةِ، كَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِي الْمَوْسِمِ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَبُو عَبْدِاللهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام فِيهِ إِذْ ذَلِكَ يُفْتِي النَّاسَ وَيُفَسِّرُ لَهُمُ الْقُرْآنَ وَيُجِيبُ عَنِ الْمَسَائِلِ بِالْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ الْقَوْمُ لِابْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ: هَلْ لَكَ فِي تَغْلِيطِ هَذَا الْجَالِسِ وَسُؤَالِهِ عَمَّا يَفْضَحُهُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُحِيطِينَ بِهِ.

فأجابهم بالإيجاب، واتجه -بعد أن تفرّق الناس- صَوْبَ الإمَام، وَقَالَ أَبَا عَبْدِ اللهِ: إِنَّ الْمَجَالِسَ أَمَانَاتٌ[1] وَلا بُدَّ لِكُلِّ مَنْ كَانَ بِهِ سُعَالٌ أَنْ يَسْعُلَ، فَتَأْذَنُ لِي فِي السُّؤَالِ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام: سَلْ إِنْ شِئْتَ.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: إِلَى كَمْ تَدُوسُونَ هَذَا الْبَيْدَرَ، وَتَلُوذُونَ بِهَذَا الْحَجَرِ، وَتَعْبُدُونَ هَذَا الْبَيْتَ الْمَرْفُوعَ بِالطُّوبِ وَالْمَدَرِ، وَتُهَرْوِلُونَ حَوْلَهُ هَرْوَلَةَ الْبَعِيرِ إِذَا نَفَرَ، مَنْ فَكَّرَ فِي هَذَا وَقَدَّرَ عَلِمَ أَنَّهُ فِعْلُ غَيْرِ حَكِيمٍ وَلَا ذِي نَظَرٍ، فَقُلْ فَإِنَّكَ رَأْسُ هَذَا الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَأَبُوكَ أُسُّهُ وَنِظَامُهُ؟

فَقَالَ لَهُ الصَّادِقُ عليه السلام:

«إِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ وَأَعْمَى قَلْبَهُ اسْتَوْخَمَ الْحَقَّ وَلَمْ يَسْتَعْذِبْهُ، وَصَارَ الشَّيْطَانُ وَلِيَّهُ وَرَبَّهُ، وَيُورِدُهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ وَلَا يُصْدِرُهُ. وَهَذَا بَيْتٌ اسْتَعْبَدَ

(١) إن هذه الكلمة اعتادت العرب استعمالها عندما يريدون أن يقولوا شيئاً مكتوماً يسترونه عن الناس.

اللهُ بِهِ خَلْقَهُ لِيَخْتَبِرَ طَاعَتَهُمْ فِي إِتْيَانِهِ؛ فَحَثَّهُمْ عَلَى تَعْظِيمِهِ وَزِيَارَتِهِ، وَجَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْمُصَلِّينَ لَهُ؛ فَهُوَ شُعْبَةٌ مِنْ رِضْوَانِهِ، وَطَرِيقٌ يُؤَدِّي إِلَى غُفْرَانِهِ، مَنْصُوبٌ عَلَى اسْتِوَاءِ الْكَمَالِ وَمَجْمَعِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى قَبْلَ دَحْوِ الْأَرْضِ بِأَلْفَيْ عَامٍ، فَأَحَقُّ مَنْ أُطِيعَ فِيمَا أَمَرَ وَانْتُهِيَ عَمَّا زَجَرَ اللهُ الْمُنْشِئُ لِلْأَرْوَاحِ وَالصُّوَرِ».

فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: ذَكَرْتَ أَبَا عَبْدِاللهِ فَأَحَلْتَ عَلَى غَائِبٍ.

فَقَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «كَيْفَ يَكُونُ يَا وَيْلَكَ غَائِباً مَنْ هُوَ مَعَ خَلْقِهِ شَاهِدٌ، وَإِلَيْهِمْ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَيَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ، لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ وَلَا يَشْغَلُ بِهِ مَكَانٌ وَلَا يَكُونُ مِنْ مَكَانٍ أَقْرَبَ مِنْ مَكَانٍ، يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ آثَارُهُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَفْعَالُهُ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله جَاءَنَا بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، فَإِنْ شَكَكْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ فَسَلْ عَنْهُ أُوضِحْهُ لَكَ».

قَالَ: فَأَبْلَسَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، وَانْصَرَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: سَأَلْتُكُمْ أَنْ تَلْتَمِسُوا لِي خُمْرَةً(١) فَأَلْقَيْتُمُونِي عَلَى جَمْرَةٍ.

فَقَالُوا: اسْكُتْ فَوَاللهِ لَقَدْ فَضَحْتَنَا بِحَيْرَتِكَ وَانْقِطَاعِكَ، وَمَا رَأَيْنَا أَحْقَرَ مِنْكَ الْيَوْمَ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ: أَبِي تَقُولُونَ هَذَا! إِنَّهُ ابْنُ مَنْ حَلَقَ رُؤُوسَ مَنْ تَرَوْنَ -وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى أَهْلِ الْمَوْسِمِ-.

ومرة أخرى جاء إليه يسأله عن حدوث العالم؟

فَقَالَ عليه السلام: «إِنِّي مَا وَجَدْتُ شَيْئاً صَغِيراً وَلَا كَبِيراً إِلَّا وَإِذَا ضُمَّ

(١) أي فراش يستريح عليه.

إِلَيْـهِ مِثْلُهُ صَـارَ أَكْبَرَ وَفِي ذَلِكَ زَوَالٌ وَانْتِقَالٌ عَـنِ الْحَالَةِ الْأُولَى، وَلَوْ كَانَ قَدِيـماً مَـا زَالَ وَلَا حَالَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَـزُولُ وَيَحُولُ يَجُـوزُ أَنْ يُوجَدَ وَيَبْطُلَ فَيَكُـونُ بِوُجُودِهِ بَعْـدَ عَدَمِهِ دُخُولٌ فِي الْحَدَثِ، وَفِي كَوْنِهِ فِي الْأَزَلِ دُخُولُهُ فِي الْقِدَمِ؛ وَلَنْ تَجْتَمِعَ صِفَةُ الْأَزَلِ وَالْعَدَمِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ».

فقال ابـن أبي العوجاء: هَبْكَ عَلِمْتُ فِي جَرْيِ الْحَالَتَيْنِ وَالزَّمَانَيْنِ مَا ذَكَرْتَ وَاسْـتَدْلَلْتَ عَلَى حُدُوثِها، فَلَوْ بَقِيَتِ الْأَشْيَاءُ عَلَى صِغَرِهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ لَكَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى حَدَثِهَا؟

فَقَـالَ عليه السلام: «إِنَّمَا نَتَكَلَّـمُ عَـلَى هَذَا الْعَـالَمِ الْمَصْنُـوعِ فَلَـوْ رَفَعْنَاهُ وَوَضَعْنَـا عَالَماً آخَـرَ كَانَ لَا شَيْءَ أَدَلَّ عَلَى الْحَدَثِ مِنْ رَفْعِنَا إِيَّاهُ وَوَضْعِنَا غَـيْرَهُ. وَلَكِنْ أُجِيبُكَ مِنْ حَيْثُ قَدَرْتَ أَنْ تُلْزِمَنَا وَنَقُولُ: إِنَّ الْأَشْـيَاءَ لَوْ دَامَـتْ عَـلَى صِغَرِهَا لَـكَانَ فِي الْوَهْمِ أَنَّـهُ مَتَى مَا ضُـمَّ شَيْءٌ إِلَى مِثْلِهِ كَانَ أَكْـبَرَ، وَفِي جَوَازِ التَّغْيِيرِ عَلَيْهِ خُرُوجُهُ مِنَ الْقِدَمِ، كَمَا أَنَّ فِي تَغْيِيرِهِ دُخُولَهُ فِي الْحَدَثِ لَيْسَ لَكَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ يَا عَبْدَ الْكَرِيمِ»[1].

ومرة جاء وقد جمع كيده وحشد أدلته وحدّ أظفاره، فما أن تباحث مـع الإمام حتـى أُفْحِمَ إفحاماً، فقـام ولم يرجع حتى هلـك[2]، وَطُوِيَ بموتـه على هذه الشـاكلة صفحة إلحـاد كان لها أنصـار وأعوان، ومضى زعيم إلحاد كان له صولة وجولة وحزب كبير.

٢- يروى عن هشـام بن الحكم أنه قال: كَانَ زِنْدِيقٌ بِمِصْرَ يَبْلُغُهُ عَـنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام، فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَـةِ لِيُنَاظِرَهُ فَلَمْ يُصَادِفْهُ بِهَا، فَقِيلَ

(١) الاحتجاج: (ص ٧٦).

(٢) ذكر العلامة المظفر في كتابه (الإمام الصادق) أن سليمان عامل الكوفة من قبل المنصور قتل ابن أبي العوجاء لالحاده وزندقته.

لَـهُ: هُوَ بِمكّـةَ؛ فَخَرَجَ الزِّنْدِيـقُ إِلَى مَكَّةَ -وَنَحْنُ مَـعَ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام آنَذَاكَ- فَانْتَهَى إِلَيْهِ وَهُوَ فِي الطَّوَافِ، فَدَنَا مِنْهُ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **مَا اسْمُكَ؟**

قَالَ: عَبْدُ المَلِكِ.

قَالَ: **فَمَا كُنْيَتُكَ؟**

قَالَ: أَبُو عَبْدِ اللهِ.

قَـالَ: **فَمَنِ المَلِـكُ الَّذِي أَنْتَ لَـهُ عَبْدٌ؟ أَمِـنْ مُلُوكِ السَّـمَاءِ أَمْ مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ؟. وَأَخْبِرْنِي عَنِ ابْنِكَ أَعَبْدُ إِلَهِ السَّمَاءِ أَمْ عَبْدُ إِلَهِ الأَرْضِ؟** فَسَكَتَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **قُلْ**. فَسَكَتَ.

فَقَالَ لَهُ عليه السلام: **إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الطَّوَافِ فَأْتِنَا**. فَلَمَّا فَرَغَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَتَـاهُ الزِّنْدِيقُ فَقَعَـدَ بَيْنَ يَدَيْهِ -وَ نَحْنُ مُجْتَمِعُـونَ عِنْدَهُ- فقال أبو عبدالله عليه السلام: **أَتَعْلَمُ أَنَّ لِلأَرْضِ تَحْتاً وَفَوْقاً؟**

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: **فَدَخَلْتَ تَحْتَهَا؟**

فقال: لا.

قَالَ: **فَمَا يُدْرِيكَ بِمَا تَحْتَهَا ؟**

قَالَ: لَا أَدْرِي إِلَّا أَنِّي أَظُنُّ أَنْ لَيْسَ تَحْتَهَا شَيْءٌ.

فقال: **فَالظَّنُّ عَجْزٌ مَا لَمْ تَسْتَيْقِنْ.**

ثم قال له: **فَصَعِدْتَ إِلَى السَّمَاءِ؟**

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَتَدْرِي مَا فِيهَا؟

قَالَ: لَا.

قال: فَأَتَيْتَ المَشْرِقَ وَالمَغْرِبَ فَنَظَرْتَ مَا خَلْفَهُمَا؟

قال: لَا.

قَالَ: فَعَجَباً لَكَ لَمْ تَبْلُغِ المَشْرِقَ وَلَمْ تَبْلُغِ المَغْرِبَ وَلَمْ تَنْزِلْ تَحْتَ الْأَرْضِ وَلَمْ تَصْعَدْ إِلَى السَّمَاءِ وَلَمْ تَجُزْ هُنَالِكَ فَتَعْرِفَ مَا خَلْفَهُنَّ وَأَنْتَ جَاحِدٌ مَا فِيهِنَّ، وَهَلْ يَجْحَدُ الْعَاقِلُ مَا لَا يَعْرِفُ؟!

فَقَالَ الزِّنْدِيقُ: مَا كَلَّمَنِي بِهَذَا أَحَدٌ غَيْرُكَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: فَأَنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَلَعَلَّ هُوَ أَوْ لَعَلَّ لَيْسَ هُوَ.

قَالَ الزِّنْدِيقُ: وَلَعَلَّ ذَاكَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «أَيُّهَا الرَّجُلُ لَيْسَ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ يَعْلَمُ؛ فَلَا حُجَّةَ لِلْجَاهِلِ. يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ تَفْهَمُ عَنِّي؛ فَإِنَّا لَا نَشُكُّ فِي اللهِ أَبَداً. أَمَا تَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَلِجَانِ لَيْسَ لَهُمَا مَكَانٌ إِلَّا مَكَانُهُمَا، فَإِنْ كَانَا يَقْدِرَانِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَا وَلَا يَرْجِعَانِ فَلِمَ يَرْجِعَانِ؟! وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مُضْطَرَّيْنِ فَلِمَ لَا يَصِيرُ اللَّيْلُ نَهَاراً وَالنَّهَارُ لَيْلاً؟! وَاللهِ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ إِنَّ الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ وَتَظُنُّونَ مِنَ الدَّهْرِ، فَإِنْ كَانَ هو يَذْهَبُهُمْ فَلِمَ يَرُدُّهُمْ، وَإِنْ كَانَ يَرُدُّهُمْ فَلِمَ يَذْهَبُ بِهِم، أما ترى السَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ وَالْأَرْضُ مَوْضُوعَةٌ لَا تَسْقُطُهَا عَلَى الْأَرْضِ وَلَا تَنْحَدِرُ الْأَرْضُ فَوْقَ مَا تَحْتَهَا، أَمْسَكَهَا وَاللهِ خَالِقُهَا وَمُدَبِّرُهَا».

قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام، فقال هشام: خُذْهُ إِلَيْكَ فَعَلِّمْه[1].

٣- وجاء إليه زنديق آخر وسأله عن أمور نظرية، فكان بينهما الحوار التالي:

قَالَ: كَيْفَ يَعْبُدُ اللهَ الْخَلْقُ وَلَمْ يَرَوْهُ؟

قال ابو عبد الله عليه السلام: «**رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِنُورِ الْإِيمَانِ، وَأَثْبَتَتْهُ الْعُقُولُ بِيَقَظَتِهَا إِثْبَاتَ الْعَيَانِ، وَأَبْصَرَتْهُ الْأَبْصَارُ بِمَا رَأَتْهُ مِنْ حُسْنِ التَّرْكِيبِ وَإِحْكَامِ التَّأْلِيفِ، ثُمَّ الرُّسُلِ وَآيَاتِهَا، وَالْكُتُبِ وَمُحْكَمَاتِهَا، وَاقْتَصَرَتِ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَا رَأَتْ مِنْ عَظَمَتِهِ دُونَ رُؤْيَتِهِ**».

قَالَ: أَلَيْسَ هُوَ قَادِراً أَنْ يَظْهَرَ لَهُمْ حَتَّى يَرَوْهُ وَيَعْرِفُوهُ فَيُعْبَدَ عَلَى يَقِينٍ؟

قَالَ عليه السلام: «**لَيْسَ لِلْمُحَالِ جَوَابٌ**»[2].

قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَثْبَتَّ أَنْبِيَاءَ وَرُسُلاً؟

قال عليه السلام: «**إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً صَانِعاً مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ، وَلَا أَنْ يُلَامِسُوهُ وَلَا أَنْ يُبَاشِرَهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ، وَيُحَاجَّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ؛ ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ يَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ**

(١) الاحتجاج، ج٢، ص ٣٣٣ - ٣٣٤. بحار الأنوار، ج٣، ص٥١ - ٥٢.

(٢) إشارة إلى أن رؤية الله محالة، حيث إن الله ليس بحجم حتى يدركه البصر، ولا بمحاط حتى يحيط به الفكر، ولا بمحدود حتى يحدده الوصف، وإنما هو فوق ذلك كله، وقدرة الله وإن كانت شاملة إلّا أن الشيء حيث لا يقبل إلّا مكان فكيف يوجد.

بَقَاؤُهُـمْ، وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ؛ فَثَبَتَ الآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ، وَثَبَتَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ مُعَبِّرِينَ وَهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، حُكَمَاءَ مُؤَدَّبِينَ بِالحِكْمَةِ مَبْعُوثِينَ عَنْهُ، مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ فِي أَحْوَالِهِمْ عَلَى مُشَارَكَتِهِمْ لَهُمْ فِي الخَلْقِ وَالتَّرْكِيبِ مُؤَدَّيْنَ مِنْ عِنْدِ الحَكِيمِ الْعَلِيمِ، بِالحِكْمَةِ وَالدَّلائِلِ وَالْبَرَاهِينِ وَالشَّوَاهِدِ مِنْ إِحْيَاءِ المَوْتَى وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ».

قَالَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خُلِقَ الأَشْيَاء؟

قَالَ عليه السلام: لا مِنْ شَيْءٍ!

فَقَالَ: فَكَيْفَ يَجِيءُ مِنْ لَا شَيْءٍ شَيْءٌ؟

قَالَ عليه السلام: «إِنَّ الأَشْيَاءَ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ أَوْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، فَإِنْ كَانَتْ خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ كَانَ مَعَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ قَدِيمٌ وَالْقَدِيمُ لَا يَكُونُ حَدِيثاً وَلَا يَفْنَى وَلَا يَتَغَيَّرُ، وَلَا يَخْلُو ذَلِكَ الشَّيْءُ مِنْ أَنْ يَكُونَ جَوْهَراً وَاحِداً وَلَوْناً وَاحِداً فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الأَلْوَانُ المُخْتَلِفَةُ وَالجَوَاهِرُ الْكَثِيرَةُ المَوْجُودَةُ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ ضُرُوبٍ شَتَّى؟! وَمِنْ أَيْنَ جَاءَ المَوْتُ إِنْ كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي أُنْشِئَتْ مِنْهُ الأَشْيَاءُ حَيًّا؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ جَاءَتِ الحَيَاةُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ مَيِّتاً؟ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ حَيٍّ وَمَيِّتٍ قَدِيمَيْنِ لَمْ يَزَالا؛ لِأَنَّ الحَيَّ لَا يَجِيءُ مِنْهُ مَيِّتٌ وَهُوَ لَمْ يَزَلْ حَيًّا، وَلَا يَجُوزُ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ المَيِّتُ قَدِيماً لَمْ يَزَلْ بِمَا هُوَ بِهِ مِنَ المَوْتِ لِأَنَّ المَيِّتَ لَا قُدْرَةَ لَهُ وَلَا بَقَاءَ».

ثم قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ قَالُوا: إِنَّ الأَشْيَاءَ أَزَلِيَّةٌ؟

قَالَ عليه السلام: «هَذِهِ مَقَالَةُ قَوْمٍ جَحَدُوا مُدَبِّرَ الأَشْيَاءِ فَكَذَّبُوا الرُّسُلَ

وَمَقَالَتَهُمْ وَالْأَنْبِيَاءَ وَمَا أَنْبَؤُوا عَنْهُ، وَسَمَّوْا كُتُبَهُمْ أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ، وَوَضَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ دِيناً بِآرَائِهِمْ وَاسْتِحْسَانِهِمْ. إِنَّ الْأَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى حُدُوثِهَا مِنْ دَوَرَانِ الْفَلَكِ بِمَا فِيهِ... إلى آخر حديثه الطويل»[1].

وعندما نُنهي الحديث عن هذه المحادثات الغزيرة بالنظريات الفلسفية من جانب، والنظريات الدينية من جانب آخر، ثم بالتوفيق بينهما وردّ الأفكار الباطلة -عند ذلك- يجب أن نعرف أن الفلسفة الإسلامية لم تستطع أن تقوم لها قائمة إلّا بعد قرن كامل من انقضاء مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، فهناك استطاع المسلمون أن يُنشئوا مدرسة ذات أصالة وملامح خاصة من بين مدارس العالم الفلسفية، ومع ذلك فإنا نرى أن هذه النظريات التي استفاضت بها أحاديث الإمام الصادق عليه السلام تتمتع بأصالة وذاتية كاملة، في حين أن غيرها بدا مثل غُثاء البحر الذي يجتمع إليه من كل جانب شيء دون أن يكون فيها أي تجاوب أو تناسب. هذا في صورتها، أما في واقعها فإنها فشلت في التوفيق بين المبادئ الدينية والدراسات الفلسفية فشلاً ذريعاً، حتى التجأت إلى التأويل في النصوص الإسلامية الصريحة، أو الطرح لها رأساً، لدرجة لم تعد هي فلسفة الإسلام أبداً.

بينما نرى نظريات الإمام الصادق عليه السلام في دراساته لا زالت من صميم الفكرة الإسلامية وآيات الذكر وآثار النبي، ومن قوانين الإسلام ونظمه حتى لكأنه جزء لا يتجزأ من كيان موحد أصيل، في الوقت نفسه نرى توفيقه الشامل لفطرة الإنسان ووحي ضميره سواء في المعنى أو في الدليل.

(١) الاحتجاج، ج٢، ص٣٣٨. بحار الأنوار، ج١٠، ص١٦٤ - ١٦٥.

الفصل الثالث

مَوَاقِفُ مُشْرِقَةٌ

عـرض موجـز للأحداث:

بنـو أميـة عشـيرة تنتسـب إلى قريش عـن طريق أمية بـن حرب، وكانت تناوئ بني هاشـم في الجاهلية، حتى جاء الرسـول محمد صلى الله عليه وآله وجاءت معه الدعوة الإسـلامية فعارضتها هذه العشـيرة أشد معارضة حتى فشلت أمام قوتها واستسلمت إلى حين.

ومـات النبي صلى الله عليه وآله وجرت أحداث التاريخ هائجة طائشـة، ولم يكـن عند بني أمية أمل العودة إلى المسرح السـياسي حتى حلّت الخلافة في بيت عثمان، فوجدت بصيصاً من الأمل فراحت تتبعه.

وشـاء القـدر أن يُقتل عثمان، كما شـاء التاريخ أن يقـوم بنو عمه بطلب ثأره. من هنا بدأ تاريخ بني أمية ظاهراً في الحكومة الإسلامية.

حـارب معاويـة عليًّا عليه السلام الخليفة الشرعـي للأمة بحجة طلب الثأر لعثمان، فلما وجد أنصاراً كثيرين نصب نفسه على الناس، ثم تطوّر وقال: إني وبنيّ الملوك، والناس عبيد صاغرون لنا.

وانحدرت سلسـلة بني أمية تحكم الناس على أنها المالكة لأمرهم وهم المطيعون، وإلّا فالسيف وكل أنواع الفتك والتعذيب مآلهم.

وانفجرت من الناس ثورات تُعارض الوضع بكل صراحة ومع أنها فشلت آخر الأمر، لكنها أبقت ضمائرها لتحيا ذات مرة وتقود المسير.

وكانت الثورات قد اتخذت طابعاً واحداً -تقريباً- هو الأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام ابن بنت رسول الأمة الذي جاهد الباطل للحق فقُتِل أفظع ما تكون قتلة في التاريخ.

أما بنو العباس فهي فرقة تنتمي إلى عم الرسول، كانت لها سوابق لا بأس بها في تاريخ المعارضة السياسية لدولة بني أمية، أكسبتها مزيداً من الكرامة والاعتبار بين الشعب الساخط على سياسة الأمويين.

وجاءت سنة الثورة وأرسلت الثورات مبعوثها إلى خراسان -آخر نقطة تقريباً من البلاد الإسلامية- حيث يتواجد أنصار الدعوة، لتعلن الثورة في الوقت المعلوم.

وكان أبو مسلم الخراساني فرداً مؤمناً بضرورة قلب الأوضاع مهما يكن من أمر، ولم يكن يؤمن بغير ذلك أبداً. وهذا الإيمان في الواقع أصمّه وأعماه. وعدم إيمانه بغيرها هو الذي سبب نجاح بني العباس في ثورتهم دون غيرهم ممن خرجوا على الدولة، حيث إن الثائرين على الأغلب كانوا يتورعون عن ارتكاب المحرمات ولو ضمنت نجاحهم الدائم، في الوقت نفسه الذي لم يكن أنصار بني أمية مُحجمون عن أي عمل يدعم سلطانهم أو يُفني عدوهم، فإذا حاربهم من كان مثلهم في هذه التبعية تساوى احتمال نجاح الطرفين.

لم يكن أبو مسلم فريداً بين المنتمين إلى الدعوة العباسية الجديدة، بل إن الأكثرية الغالبة من قادتها كانوا من هذا الطراز، فلم يروا عائقاً

يمنعهم من السيادة والاستئثار بالحكم إلّا اعتبروا العمل لإزالته عملاً حسناً بأي صورة كانت.

لقد استلم أبو مسلم من مركز القيادة -الكوفة- أوامر كانت هذه بعض فقراتها:

«إنك رجل منا -أهل البيت- احفظ وصيتي، انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن من أظهرهم، واتّهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألّا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ سليمان بن كيد ولا تعصه، وإذا أشكل عليك الأمر فاكتفِ به مني، والسلام».

وهو بالذات لا يحتاج إلى مثل هذه الأوامر لأنه -كما سبق- كان رجلاً سفّاكاً إلى أبعد الحدود، فكم غدر بالقادة المعارضين له بعدما استضافهم في بيته، وكم أعطى الأمان لرجال صالحين ثم نكّل بهم وقتّلهم تقتيلاً، وكم قتل الأبرياء بغير جريمة، وكم هتك الحرمات بغير مبرر، وكم وكم...

أما القادة في الكوفة فلم يكونوا بأقل إجراماً منه، فقد بايعوا رجلاً من بني هاشم هو محمد بن عبد الله[1]، وحينما وجدوا فرصة سرقوا الثورة واستأثروا بخيراتها وأنزلوا العذاب بمن ناصرهم في الأمس بل بالمؤسس للفكرة وبالذي بايعوه عن قريب فقد أخذوه وقتلوه غدراً.

---

(١) لقد بايع الهاشميون على الأغلب وفيهم السفاح والمنصور هذا الرجل الذي رشحته كفاءاته الكثيرة للقيادة، فنصب نفسه لها وأعانه عليها أقرباؤه جميعاً. كل ذلك في محل بين المدينة ومكة يسمى بـ(الأبواء).

وهذا أبو مسلم الذي كان المؤسس للدولة قد غدر به المنصور فقتله شر قتله، وغدر بعيسى بن موسى وعزله عن ولاية العهد بعدما جعلها له إكراماً لما قدَّمه إليه من خدمات جليلة.

كما غدر بنو العباس بكلٍّ من أبي سلمة الخلال، ويعقوب بن داود، وفضل بن سهل، وجعفر البرمكي، ويحيى الحسني، وغيرهم... ممن أسدوا إليهم خدمات كانت جديرة بأن تُشكر وتُجزى خير جزاء.

موقف الإمام:

يعتقد البعض أن عصر الإمام الصادق عليه السلام كان يمكن أن يكون من أنسب العصور وأخصبها لو كان الإمام يشتغل للثورة الحقة التي تُرجع الخلافة إلى المؤهل لها من عند الله عزّ وجلّ ومن لدن رسوله صلى الله عليه وآله؛ لكونه عصر تطور -بالغ الخطورة- في التاريخ الإسلامي، حيث أزاح الستار عما كان الزمن قد ستره من الحقائق الدينية، ولكن الواقع يُنبئ بغير هذا الزعم وهو أن الإمام الصادق عليه السلام لم يكن يستطيع النهوض بإظهار الدعوة على المسرح السياسي في يوم من الأيام، فأما في عصر الأمويين فلما سبق من أنهم لم يكونوا يتورعون من أي جريمة يرتكبونها في سبيل إخماد ثورة ضدهم، مع أن الإمام عليه السلام لم يلجأ إلى الباطل في طريق الحق ولم يستعن بالظلم لتطبيق العدل. وأما بنو العباس فلم يكونوا بأحسن أعمالاً من إخوانهم بني أمية ولا بأورع عن الفتك والمكر في سبيل توطيد ملكهم؛ ولذلك استطاعوا أن ينسفوا عرش بني أمية نسفاً، وهكذا ضرب الباطل بالباطل وكان بينهما تبديلاً.

كما استغل العباسيون كل نشاط لدعوة بني هاشم، واستفادوا

من الاستياء العام الذي صنعه الطالبيون -ولا زال الناس يُلقون بآمالهم الكبيرة عليهم-؛ لذلك لم يمكن النهوض بعبء الثورة الشيعية لاسيما تلك التي يُتورع فيها عن أي سفك للدماء البريئة وأي هتك للحرمات المقدسة.

ويدلنا على عدم وجود مؤهلات النهوض في عصر العباسيين أن طائفة من بني عمومة الإمام ثاروا -سواء في عصر الإمام عليه السلام أو بعده- فلم يُفلحوا وكان مصيرهم المصير نفسه الذي لقيه آباؤهم في عصر الأمويين أبداً.

ومع ذلك كله فإن الإمام عليه السلام كان يدعم أسس الثورة الفكرية الجامحة التي تؤدي إلى الثورة السياسية أيضاً، وذلك بنشر الحقائق الدينية والتاريخية بصراحة ودون غموض، مما أدى إلى تهيئة جوٍّ صالح لغرس نواة الانقلاب الفكري السياسي، حتى أنه قرر أن يكون الإمام موسى بن جعفر الكاظم -نجل الصادق عليه السلام- قائم آل محمد صلى الله عليه وآله الذي كان تعبيراً عن رجوع الدولة المغتصبة والحق المُضيَّع إليهم، حيث إن الشيعة لمسوا فيه رعايات واسعة لها تأثيرها في تحويل الوضع السياسي، ولكن أتباع الدعوة الشيعية خانوها بإفشاء سر النهج والطريق المرسوم، وكانت النتيجة أن أُلقِيَ القبضُ على الإمام الكاظم عليه السلام وسُجِنَ سنوات طويلة وأُنْزِلَ على الشيعة الويل والعذاب بشتى الصور.

ولكن روح الثورة التي خلقها الإمام الصادق عليه السلام ظلَّت متوثبة حتى بعد موت هارون الرشيد في زمان الإمام الرضا عليه السلام حفيد الإمام، وانتهت بإعلان ولاية العهد الذي كان سبيلاً مباشراً

لرجوع الخلافة إلى أبناء علي عليه السلام ولكن شاء القدر باستشهاد الإمام الرضا عليه السلام قبل موت المأمون.

وعلى أي حال فإن الإمام الصادق عليه السلام خلق جوًّا صالحاً للثورة في هذه السنوات التي تولى فيها إمامة المسلمين بعد أبيه عليه السلام.

ومن الطبيعي ألَّا تتركه السلطات هادئاً يمشي في طريقه المرسوم وإن كان لا يعارضهم معارضة مباشرة؛ لأن مقاطعته للعباسيين كانت لهم نذير سوء، ومثيرة لسخطهم البالغ عليه، وعنفهم الشديد ضده.

فقد دعاه المنصور ليسير في ركابه كما سار غيره من أئمة الجور. حيث أرسل إليه يقول: لِمَ لَا تَغْشَانَا كَمَا يَغْشَانَا سَائِرُ النَّاسِ؟

فَأَجَابَهُ الإمام عليه السلام: «**لَيْسَ لَنَا مَا نَخَافُكَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَا عِنْدَكَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ مَا نَرْجُوكَ لَهُ، وَلَا أَنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَنُهَنِّئَكَ، وَلَا تَرَاهَا نَقِمَةً فَنُعَزِّيَكَ بِهَا؛ فَمَا نَصْنَعُ عِنْدَكَ؟**».

فَكَتَبَ إِلَيْهِ المنصور: تَصْحَبُنَا لِتَنْصَحَنَا.

فَأَجَابَهُ عليه السلام: «**مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا لَا يَنْصَحُكَ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ لَا يَصْحَبُكَ**».

فَقَالَ الْمَنْصُورُ: وَاللهِ لَقَدْ مَيَّزَ عِنْدِي مَنَازِلَ النَّاسِ: مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا مِمَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، وَإِنَّهُ مِمَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ لَا الدُّنْيَا[1].

والآن حيث انتهيت من وضع الخطوط العريضة لسياسة الإمام الصادق عليه السلام مع السلطات المعاصرة ينبغي لي أن أشير إلى بعض

(1) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٨٤.

الأحداث التي جرت على الإمام عليه السلام أو على بعض مواليه من المحن التي لاقوها من السلطة لا لشيء إلّا لأنهم أرادوا الحق ودعوا إليه، تاركاً البحث حولها إلى مجال آخر.

أشخص السفاح الإمام الصادق عليه السلام من المدينة إلى الحيرة لِيَفْتِكَ به، ولكنْ كفاه الله من ذلك.

وجاء دور المنصور فتعاهد الإمام بالأذى اثنتي عشرة سنة، وأشخصه سبع مرات في المدينة والربذة والكوفة وبغداد، وفي كل مرة يستدعيه المنصور، فإذا جاء إليه أنذر وأعذر وذهب بالذل، ورجع الإمام بالخير والمعروف.

وإني إذ أنقل إليك -أخي القارئ- تفصيل هذا الاستحضار في أوائل خلافة المنصور وأواخرها ابتغاءً لبيان حِدَّة الخلاف ونوعيته بين المنصور وبينه عليه السلام.

١- روى السيد ابن طاوس نقلاً عن الربيع حاجب المنصور أنه قال: لَمَّا حَجَّ الْمَنْصُورُ -ربما يكون في سنة ١٤٠ أو ١٤٤ هجرية- وَصَارَ بِالْمَدِينَةِ سَهِرَ لَيْلَةً فَدَعَانِي فَقَالَ: يَا رَبِيعُ انْطَلِقْ فِي وَقْتِكَ هَذَا عَلَى أَخْفَضِ جَنَاحٍ، وَأَلْيَنِ مَسِيرٍ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ وَحْدَكَ فَافْعَلْ، حَتَّى تَأْتِيَ أَبَا عَبْدِ اللهِ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقُلْ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ:

«إِنَّ الدَّارَ وَإِنْ نَأَتْ، وَالْحَالَ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ، فَإِنَّا نَرْجِعُ إِلَى رَحِمٍ أَمَسَّ مِنْ يَمِينٍ بِشِمَالٍ وَنَعْلٍ بِقِبَالٍ، وَهُوَ يَسْأَلُكَ الْمَصِيرَ إِلَيْهِ فِي وَقْتِكَ هَذَا، فَإِنْ سَمَحَ بِالْمَسِيرِ مَعَكَ فَأَوْطِهِ خَدَّكَ، وَإِنِ امْتَنَعَ بِعُذْرٍ أَوْ غَيْرِهِ

فَارْدُدِ الْأَمْرَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ أَمْرَكَ بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ فِي تَأَنٍّ فَيَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ وَاقْبَلِ الْعَفْوَ وَلَا تُعَنِّفْ فِي قَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ».

قَالَ الرَّبِيعُ: فَصِرْتُ إِلَى بَابِهِ فَوَجَدْتُهُ فِي دَارِ خَلْوَتِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، فَوَجَدْتُهُ مُعَفِّراً خَدَّيْهِ مُبْتَهِلاً بِظَهْرِ يَدَيْهِ قَدْ أَثَّرَ التُّرَابُ فِي وَجْهِهِ وَخَدَّيْهِ.

فَأَكْبَرْتُ أَنْ أَقُولَ شَيْئاً حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَدُعَائِهِ ثُمَّ انْصَرَفَ بِوَجْهِهِ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ.

فَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا أَخِي مَا جَاءَ بِكَ؟

فَقُلْتُ: ابْنُ عَمِّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ... حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ.

فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا رَبِيعُ! ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١).

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٢).

قَرَأْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّلَامَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ وَانْصَرَفَ إِلَى تَوَجُّهِهِ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ السَّلَامِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ عَلَيْهِ أَوْ إِجَابَةٍ؟

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٧-٩٩.

فَقَالَ: نَعَمْ قُلْ لَهُ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[1].

إِنَّا وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَدْ خِفْنَاكَ وَخَافَتْ لِخَوْفِنَا النِّسْوَةُ اللَّاتِي أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِنَّ، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْإِيضَاحِ بِهِ، فَإِنْ كَفَفْتَ وَإِلَّا أَجْرَيْنَا اسْمَكَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ (أي دعونا عليك مع كل صلاة دعاء لا يرد لأنه مع إخلاص).

وَأَنْتَ حَدَّثْتَنَا عَنْ أَبِيكَ عَنْ جَدِّكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله قَالَ: أَرْبَعُ دَعَوَاتٍ لَا يُحْجَبْنَ عَنِ اللهِ تَعَالَى دُعَاءُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ وَالْأَخِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لِأَخِيهِ وَالْمَظْلُومِ وَالْمُخْلِصِ.

قَالَ الرَّبِيعُ: فَمَا اسْتَتَمَّ الْكَلَامَ حَتَّى أَتَتْ رُسُلُ الْمَنْصُورِ تَقْفُو أَثَرِي وَتَعْلَمُ خَبَرِي، فَرَجَعْتُ وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا كَانَ، فَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ وَقُلْ لَهُ: الْأَمْرُ فِي لِقَائِكَ إِلَيْكَ وَالْجُلُوسِ عَنَّا، وَأَمَّا النِّسْوَةُ اللَّاتِي ذَكَرْتَهُنَّ فَعَلَيْهِنَّ السَّلَامُ، فَقَدْ آمَنَ اللهُ رَوْعَهُنَّ وَجَلَا هَمَّهُنَّ.

قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ الْمَنْصُورُ، فَقَالَ: قُلْ لَهُ: وَصَلْتَ رَحِماً وَجُزِيتَ خَيْراً. ثُمَّ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى قَطَرَ مِنَ الدَّمْعِ فِي حَجْرِهِ قَطَرَاتٌ[2].

٢- وعن محمد بن عبد الله الإسكندري كان من نُدماء المنصور

(١) سورة النجم، الآية: ٣٣-٤٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٨٨ - ١٨٩.

وخواصه، أنه قال: دَخَلْتُ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَيْتُهُ مُغْتَمًّا، فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا الْفِكْرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!

فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ! لَقَدْ هَلَكَ مِنْ أَوْلَادِ فَاطِمَةَ مِائَةٌ أَوْ يَزِيدُونَ، وَقَدْ بَقِيَ سَيِّدُهُمْ وَإِمَامُهُمْ.

فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

قَالَ: جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ.

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّهُ رَجُلٌ قَدْ شَغَلَتْهُ الْعِبَادَةُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ وَالْخِلَافَةِ.

فَقَالَ لِي: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَقُولُ بِهِ وَبِإِمَامَتِهِ، وَلَكِنَّ الْمُلْكَ عَقِيمٌ قَدْ آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَلَّا أُمْسِيَ عَشِيَّتِي حَتَّى أَفْرُغَ مِنْهُ.

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَاللهِ لَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا، ثُمَّ دَعَا بِسَيَّافٍ وَقَالَ لَهُ إِذَا أَنَا أَحْضَرْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ وَشَغَلْتُهُ بِالْحَدِيثِ وَوَضَعْتُ قَلَنْسُوَتِي، فَهُوَ الْعَلَامَةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَاضْرِبْ عُنُقَهُ.

ثُمَّ أَحْضَرَ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَلَحِقْتُهُ فِي الدَّارِ، وَهُوَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَلَمْ أَدْرِ مَا الَّذِي قَرَأَ، فَرَأَيْتُ الْقَصْرَ يَمُوجُ كَأَنَّهُ سَفِينَةٌ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، فَرَأَيْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ وَهُوَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ حَافِيَ الْقَدَمَيْنِ مَكْشُوفَ الرَّأْسِ قَدِ اصْطَكَّتْ أَسْنَانُهُ وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ، يَحْمَرُّ سَاعَةً وَيَصْفَرُّ أُخْرَى، وَأَخَذَ بِعَضُدِ أَبِي عَبْدِ اللهِ الصَّادِقِ عليه السلام وَأَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، وَجَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا يَجْثُو الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: جِئْتُكَ طَاعَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَلِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ.

قَالَ: مَا دَعَوْتُكَ، وَالْغَلَطُ مِنَ الرَّسُولِ. ثُمَّ قَالَ: سَلْ حَاجَتَكَ؟

فَقَالَ: أَسْأَلُكَ أَلَّا تَدْعُوَنِي لِغَيْرِ شُغْلٍ.

قَالَ: لَكَ ذَلِكَ وَغَيْرُ ذَلِكَ. ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو عَبْدِ اللهِ سَرِيعاً. وَحَمِدْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيراً.

وَدَعَا أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ بِالدَّوَاوِيجِ -أي الألحفة والأغطية- وَنَامَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ إِلَّا فِي نِصْفِ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْتَبَهَ كُنْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ جَالِساً، فَسَرَّهُ ذَلِكَ وَقَالَ لِي: لَا تَخْرُجْ حَتَّى أَقْضِيَ مَا فَاتَنِي مِنْ صَلَاتِي فَأُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ أَقْبَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَحَدَّثَهُ بِمَا شَاهَدَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ الَّتِي أَفْزَعَتْهُ عِنْدَ مَجِيْءِ الصَّادِقِ عليه السلام، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً لِانْصِرَافِهِ عَنْ قَتْلِهِ وَدَاعِياً لِاحْتِرَامِهِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ.

يقول محمد: قُلْتُ لَهُ: لَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَإِنَّ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام وَارِثُ عِلْمِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَجَدُّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَعِنْدَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَسَائِرِ الدَّعَوَاتِ الَّتِي لَوْ قَرَأَهَا عَلَى اللَّيْلِ لَأَنَارَ، وَلَوْ قَرَأَهَا عَلَى النَّهَارِ لَأَظْلَمَ، وَلَوْ قَرَأَهَا عَلَى الْأَمْوَاجِ فِي الْبَحْرِ لَسَكَنَتْ(١).

وهكذا استمر المنصور يدعو الإمام مرة بعد أخرى حتى دسَّ إليه السم فقتله.

ولم تقتصر مواقف الإمام المشرفة في التي وقفها مع المنصور فقط، بل إن له مواقف مشابهة مع ولاة المنصور، من ذلك ما يلي:

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٠١.

١ – ذات مرة كان الصادق عليه السلام عند زياد بن عبد الله فقال الرجل: يَا بَنِي عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ! مَا فَضْلُكُمْ عَلَى النَّاس؟ (فسكت كل من كان في المجلس من الفاطميين خوفاً على أنفسهم من قتل الرجل).

فقال الإمام: «**إِنَّ مِنْ فَضْلِنَا عَلَى النَّاسِ أَنَّا لا نُحِبُّ أَنْ نَكُونَ أَحَداً سِوَانَا وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ لا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِنَّا**»[1].

٢ – وكان داود بن علي والياً على المدينة فأمر مدير الشرطة بإعدام (معلى بن خنيس) وهو من زعماء الشيعة البارزين ومن أصحاب الإمام الصادق عليه السلام المفوهين، فنفذ مدير الشرطة أمر الرئيس.

فلما قتل (معلى) جاء الإمام وقد اشتد غضبه على الحكم إلى الوالي يقول له: «**قَتَلْتَ مَوْلَايَ وَأَخَذْتَ مَالِي!! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الرَّجُلَ يَنَامُ عَلَى الثُّكْلِ وَلَا يَنَامُ عَلَى الحَرَبِ**»[2].

فاعتذر الوالي بأنه لم يكن القاتل المباشر.

فذهب إلى مدير الشرطة فاعترف بالجرم فأمر بضرب عنقه فقتله جزاءً على قتله وقوراً.

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٦٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٧٧.

الفصل الرابع

مَكارِمُ الأَخلاقِ

ثقافته الواسعة:

لا نستطيع أن نُحدِّد من ثقافة الإمام -أيّ إمام- إذا اعتقدنا بأن ثقافته صورة واضحة عن اتصاله بالله تعالى، حيث إنه يحدو بنا إلى الاعتقاد بأن الله يوحي إليه إلهاماً. وكذلك لا نستطيع أن نجد وصفاً شاملاً لثقافته إذا عرفنا أن المفاهيم العادية التي نعيشها في حياة الإنسان لا تضبط كل ثقافته وكل معرفته، لأن للإمام وللنبي ولبعض الملهمين من الصالحين قوة يهبهم إياها الله القدير، تلتقط المعلومات عن الكون والحياة كما تلتقط آلة التصوير أو أفلام السينما صور الموجات، وكما تلتقط العين وأعصاب الأذن جمال الحياة وصوت الأحياء، فيعرف شيئاً جميلاً وفرداً متكلماً.

وأعود فأقول: ليست ثقافة الإمام الصادق عليه السلام محدودة بما قال أو بما حُفِظَ عنه من آثار في مختلف العلوم، بل أكبر من هذا سعةً وأكثر رحابةً وأبعد أُفُقاً؛ لأن ثقافته اتصلت بالموجودات رأساً كما تتصل السحابة بالبحر، والضياء بالشمس والعطر بالورد، وحيث كان يستوحي أفكاره واتجاهاته ومعارفه من الله خالق البحر والشمس، ومُفَتِّح الورد. فالوحي من الله فالنبي فالإمام، وكذلك الإلهام من الله فالإمام.

إن الحقيقة التي عَبَّر عنها فم الإمام هي الحقيقة التي عرفها قلبه،

وحواها فكره، وأدركتها روحه، والتي نفخها بارئ الحقيقة في روح الإمام عليه السلام.

وبعد كل هذا فإن هناك جانباً واحداً يهمنا من ثقافة إمامنا الصادق عليه السلام وهو أنها كانت معجزته كما كان معجزة النبي صلى الله عليه وآله قرآنه، وإنه يعلم كل شيء يحتاج إليه الإنسان، وهذا الجانب وحده هو الذي حدا بالجعفرية أن يتبعوا مدرسته الفكرية في كل عصر.

وهنا يجدر بنا أن ننقل اعترافات بعض الزعماء والمفكرين بمدى سعة آفاق الإمام العلمية، ومدى رحابة مكانته الثقافية، التي جعلت من أعدائه منابر المدح ومنصات الثناء.

قال فيه أبو حنيفة: «ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد»، و«جعفر بن محمد أفقه من رأيت».

وقال فيه الشهرستاني: «وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة».

وقال فيه ابن حجر الهيثمي: «جعفر بن محمد الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الكبار».

وقال فيه السيد أمير علي صاحب كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي:

«لا يفوتنا أن نشير إلى ان الذي تزعّم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب المسمى بالإمام جعفر والملقب بـ(الصادق)، وهو رجل رحب أفق التفكير، بعيد أغوار العقل، ملم كل الإلمام بعلوم عصره، ويعتبر في

الواقع أنه أول من أسس المدارس الفلسفية في الإسلام. ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة المتفلسفون من الأنحاء القاصية».

وقال العلّامة هوليادر الكاتب الإنكليزي:

«إن جابر هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه، وقد وجد في إمامه الفذ سنداً ومعيناً وراشداً أميناً وموجهاً لا يستغني عنه، وقد سعى جابر إلى أن يحرر الكيمياء بإرشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الإسكندرية، فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد، من أجل ذلك يجب أن يُقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم أمثال (بويله) و (فوازيه) وغيرهما من الأعلام»[1].

وهناك مئات بل ألوف من الاعترافات التي أبداها كل من الكتّاب المسلمين وغيرهم من المحدثين والقدماء، وبصورة خاصة من معاصري الإمام عليه السلام حتى ملأ العالم فضله وعلمه الغزير وثقافته الوسيعة البالغة.

جوده وكرمه:

١ – قال سعيد بن بيان: مَرَّ بِنَا الْمُفَضَّلُ –وَ أَنَا وَخَتَنِي– نَتَشَاجَرُ فِي مِيرَاثٍ، فَوَقَفَ عَلَيْنَا سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ لَنَا: تَعَالَوْا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَأَتَيْنَاهُ فَأَصْلَحَ بَيْنَنَا بِأَرْبَعَةِ مِائَةِ دِرْهَمٍ فَدَفَعَهَا إِلَيْنَا مِنْ عِنْدِهِ، حَتَّى إِذَا اسْتَوْثَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِنْ صَاحِبِهِ قَالَ المفضل: أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ مَالِي وَلَكِنْ أَبُو عَبْدِ اللهِ الصادق أَمَرَنِي إِذَا تَنَازَعَ رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي شَيْءٍ أَنْ أُصْلِحَ بَيْنَهُمَا وَأَفْتَدِيَهَا مِنْ مَالِهِ –فَهَذَا مِنْ مَالِ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام–.

---

(١) نجد هذه الاعترافات وعشرات أمثالها في كتاب الإمام الصادق للأستاذ الدخيل فصل (الإمام في نظر العظماء والعلماء)، ص ٨٦ – ١١١.

٢ - وجاء إليه رجل وقال: لقد بَلَغَنِي أَنَّكَ كُنْتَ تَفْعَلُ فِي غَلَّةِ عَيْنِ زِيَاد -وكان ذلك اسم قرية له- شَيْئاً وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ.

فَقَالَ عليه السلام: «نَعَمْ كُنْتُ آمُرُ إِذَا أَدْرَكَتِ الثَّمَرَةُ أَنْ يُثْلَمَ (أي يشق ويهدم) فِي حِيطَانِهَا الثُّلَمُ لِيَدْخُلَ النَّاسُ وَيَأْكُلُوا، وَكُنْتُ آمُرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْ يُوضَعَ عَشْرُ بُنَيَّاتٍ يَقْعُدُ عَلَى كُلِّ بُنَيَّةٍ عَشَرَةٌ كُلَّمَا أَكَلَ عَشَرَةٌ جَاءَ عَشَرَةٌ أُخْرَى يُلْقَى لِكُلِّ نَفْسٍ مِنْهُمْ مُدٌّ مِنْ رُطَبٍ، وَكُنْتُ آمُرُ لِجِيرَانِ الضَّيْعَةِ كُلِّهِمُ الشَّيْخِ وَالْعَجُوزِ وَالصَّبِيِّ وَالمَرِيضِ وَالمَرْأَةِ وَمَنْ لا يَقْدِرُ أَنْ يَجِيءَ فَيَأْكُلَ مِنْهَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُدٌّ، فَإِذَا كَانَ الجُذَاذُ وَفَيْتُ الْقُوَّامَ وَالْوُكَلاءَ وَالرِّجَالَ أُجْرَتَهُمْ وَأَحْمِلُ الْبَاقِيَ إِلَى المَدِينَةِ فَفَرَّقْتُ فِي أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ وَالمُسْتَحِقِّينَ الرَّاحِلَتَيْنِ وَالثَّلاثَةَ وَالأَقَلَّ وَالأَكْثَرَ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَحَصَلَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعُمِائَةِ دِينَارٍ، وَكَانَ غَلَّتُهَا أَرْبَعَةَ آلافِ دِينَارٍ»(١).

يعني ذلك أنه كان يصرف تسعة أعشار تلك الضيعة في الوجوه الخيرية بينما يجعل لنفسه عُشراً واحداً منها فقط.

٣ - وينقل هشام بن سالم أحد أصحاب الإمام البارزين فيقول: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام إِذَا أَعْتَمَ -أي أظلم- وَذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ شَطْرُهُ أَخَذَ جِرَاباً فِيهِ خُبْزٌ وَلَحْمٌ وَالدَّرَاهِمُ فَحَمَلَهُ عَلَى عُنُقِهِ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ فَقَسَمَهُ فِيهِمْ وَلَا يَعْرِفُونَهُ.

فَلَمَّا مَضَى «وتوفي» أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَقَدُوا ذَلِكَ فَعَلِمُوا أَنَّهُ كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام(٢).

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٢، ص ٥٣.
(٢) الإمام الصادق، محمد أبو زهرة، ص ٨١.

٤ - يحدّث الهياج البسطامي عن كرم الإمـام فيقول: كان أبو عبد الله يُنفق حتى لا يبقى شيء لعياله[١].

٥ - وقال بوابه المصادف: كُنْتُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَمَرَرْنَا عَلَى رَجُلٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ وَقَدْ أَلْقَى بِنَفْسِهِ، فقال عليه السلام: **مِلْ بِنَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ** (أي إعدل الطريق إلى جانبه) **فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَطَشٌ**، فَمِلْنَا فَإِذَا رَجُلٌ مِنَ الْفَرَاسِينَ طَوِيلُ الشَّعْرِ، فَسَأَلَهُ: **أَعَطْشَانُ أَنْتَ؟** فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لِي: **انْزِلْ يَا مُصَادِفُ فَاسْقِهِ**، فَنَزَلْتُ وَسَقَيْتُهُ ثُمَّ رَكِبْتُ وَسِرْنَا، فَقُلْتُ: هَذَا نَصْرَانِيٌّ فَتَتَصَدَّقُ عَلَى نَصْرَانِيٍّ؟

فَقَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَانُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ**[٢].

٦ - كان مريضاً ذلك النهار الذي دخل عليه الشاعر الملهم أشجع السلمي فجلس إليه يسأل عن أحواله، فقال له الإمام عليه السلام: **عُدْ عَنِ الْعِلَّةِ وَاذْكُرْ مَا جِئْتَ لَه**.

فَقَالَ الشاعر:

أَلْبَسَكَ اللهُ مِنْهُ عَافِيَةً ... فِي نَوْمِكَ الْمُعْتَرِي وَفِي أَرَقِكْ
يُخْرِجُ مِنْ جِسْمِكَ السِّقَامَ كَمَا ... أَخْرَجَ ذُلَّ السُّؤَالِ مِنْ عُنُقِكْ

فَقَالَ الإمام: **يَا غُلَامُ! أَيْشٍ مَعَكَ؟**

قَالَ أَرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ. قَالَ: **أَعْطِهَا لِلْأَشْجَعِ**[٣].

٧- وبعث إلى ابن عمٍّ له من بني هاشم صُرَّة بيد أبي جعفر

(١) الإمام الصادق، محمد أبو زهرة، ص ٨١.
(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٤ ص ٣٨.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٣٢٠ - ٣١١.

الخثعمي -وكان من رواته الموثوقين-، فأمره بأن يكتمه عنه. فلما جاء إلى الهاشمي وأعطاه، قال: جَزَاهُ اللهُ خَيْراً مَا يَزَالُ كُلَّ حِينٍ يَبْعَثُ بِهَا فَنَعِيشُ بِهِ إِلَى قَابِلٍ، وَلَكِنِّي لَا يَصِلُنِي جَعْفَرٌ بِدِرْهَمٍ فِي كَثْرَةِ مَالِهِ.

وحينما حضرته الوفاة أمر بسبعين ديناراً لابن عمه الحسن بن علي الأفطس، فقيل له: أَتُعْطِي رَجُلاً حَمَلَ عَلَيْكَ بِالشَّفْرَةِ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَكَ؟

فقال عليه السلام: «وَيْحَكُمْ أَمَا تَقْرَؤُونَ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَطَيَّبَهَا وَطَيَّبَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَتُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفَيْ عَامٍ، وَلَا يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٌّ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ»[2].

حلمه ورأفته:

١ - كان عليه السلام إذا بلغه من أحد نيلاً منه أو وقيعة فيه قام إلى مُصلّاه فأكثر من ركوعه وسجوده وبالغ في ابتهاله وضراعته، وهو يسأل الله أن يغفر لمن ظلمه بالسب ونال منه.

وإن كان من أقربائه الأدنين فكان يَصِلُهُ بمال ويزيد في بره، قائلاً: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ اللهُ أَنِّي قَدْ أَذْلَلْتُ رَقَبَتِي فِي رَحِمِي، وَأَنِّي لَأُبَادِرُ أَهْلَ بَيْتِي أَصِلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْنُوا عَنِّي»[3].

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٧١. وتجد هذه الأخبار كلها في كتاب الإمام الصادق للعلّامة المظفر في (ص ٣٥٢ - ٣٥٥).
(٣) بحار الأنوار، ج٧١، ص١٢٩.

لله سيدي ما أعظمك واحلمك، وما أكبرك نفساً وأرحبك صدراً وأحسنك خلقاً.

٢- ويبعث غلامه إلى حاجة فأبطأ، فذهب على أثره يتفقده فوجده نائماً على بعض الأرصفة، فجاء حتى جلس بجانبه يروح له فلما انتبه قال له: «**يَا فُلَانُ وَاللهِ مَا ذَلِكَ لَكَ تَنَامُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَكَ اللَّيْلُ وَلَنَا مِنْكَ النَّهَارُ**»[1].

إذا أضفنا هذه القصة الصغيرة إلى الوضع الاجتماعي ذلك اليوم الذي كان الرقيق يُعاملون معاملة البهائم فيُشبعونهم ضرباً بمجرد أن تبدر منهم بادرة، نعرف مدى نضوج الإنسانية الرفيعة في فؤاده الكبير.

٣- بعث غلاماً له أعجميًا في حاجة فلما رجع بالجواب لم يستطع أن يُفصح به العبد؛ لأنه لم يكن يُجيد العربية تماماً، فبدلاً من أن ينهره ويطرده -شأن الناس ذلك اليوم- سكّن قلبه وهدّأ اضطرابه وقلقه حيث قال له: «**لَئِنْ كُنْتَ عَيِيَّ اللِّسَانِ فَمَا أَنْتَ بِعَيِيِّ الْقَلْبِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْعَفَافَ وَالْعِيَّ عِيُّ اللِّسَانِ لَا عِيُّ الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ**»[2].

٤- ونهى أهل بيته عن الرقي إلى السطح عبر سلّم مشيراً لهم بأفضلية الدرج المألوف للصعود، فدخل ذات مرة الدار ورأى إحدى الجواري التي كانت تُربّي ولداً له تتسلق السلّم والطفل بيدها فلما بصرت الجارية بالإمام خافت وارتعدت فرائصها وسقط الصبي من يدها ومات.

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٥٦.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص٦١.

فخرج عليه السلام إلى مجلسه متغيراً لونه، فلما سُئل عن ذلك قال: **مَا تَغَيَّرَ لَوْنِي لِمَوْتِ الصَّبِيِّ، وَ إِنَّمَا تَغَيَّرَ لَوْنِي لِمَا أَدْخَلْتُ عَلَى الجَارِيَةِ مِنَ الرُّعْبِ**، في حين أن الإمام قال لها حينما شاهدها خائفة مذعورة: **أَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ، أَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ**(1).

٥- كانت الحجاج تتقاطر على مكة والمدينة وكان بعضهم يُفضّل المبيت في مسجد النبي صلى الله عليه وآله بدلاً من أن يستأجروا مقابل بعض الدراهم، فكان أحدهم نائماً بالمسجد والإمام يصلي بجانبه فلما انتبه لم يـر هميانه الذي حفظ فيه نقوده، فتعلق بالإمام -ولم يكن يعرفه- قائلاً: أَنْتَ أَخَذْتَ هِمْيَانِي.

قال له الإمام: **مَا كَانَ فِيهِ؟**

قَالَ: أَلْفُ دِينَارٍ. فَحَمَلَهُ إِلَى دَارِهِ وَوَزَنَ لَهُ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَوَجَدَ هِمْيَانَهُ، فَعَادَ إِلَى جَعْفَرٍ عليه السلام مُعْتَذِراً بِالمَالِ، فَأَبَى قَبُولَهُ وَقَالَ: **شَيْءٌ خَرَجَ مِنْ يَدِي لَا يَعُودُ إِلَيَّ**.

فخرج الرجل يسأل الناس عن الإمام فقيل هذا جعفر بن محمد فقال: لَا جَرَمَ هَذَا فِعَالُ مِثْلِه(2).

صبره وأمانته:

١- كان للإمام ولد يُدعى (إسماعيل) وكان أكبر أولاده، فلما شبَّ كان جمَّاع الفضائل والمكارم حتى حُسِبَ أنه خليفة أبيه والإمام من بعده، ولما اكتمل نبوغه صرعته المنية، فلم يخرج لوفاته بل دعا أصحابه إلى داره

---

(١) انظر: بحار الأنوار، ج٤٧، ص٢٤..

(٢) الإمام الصادق عليه السلام للعلاّمة المظفر، ج ١، ص ٢٥٨.

لمراسم الدفن وأتى إليهم بأفخر الأطعمة وحثهم على الأكل الهنيء، فسألوه عن حزنه على الفقيد الفتي الذي اختطفه الموت في ربيعه ولما يكمل من الحياة نصيبه، قال لهم: «وَمَا لِيَ لَا أَكُونُ كَمَا تَرَوْنَ وَقَدْ جَاءَنِي خَبَرُ أَصْدَقِ الصَّادِقِيْنَ»[1] -أي الرسول صلى الله عليه وآله-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

٢- وكان له ولد آخر كان في بعض طرقات المدينة يمشي أمامه غضًا طريًا، اعترضته غصة في حلقه فشرق بها ومات أمامه، فبكى عليه السلام ولم يجزع بل اكتفى بقوله مخاطباً لجثمان ولده الفقيد: «لَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ وَلَئِنِ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتَ».

ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى النِّسَاءِ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ صَرَخْنَ فَأَقْسَمَ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يَصْرُخْنَ.

ثم أخرجه إلى المدفن وهو يقول: «سُبْحَانَ مَنْ يَقْتُلُ أَوْلَادَنَا وَلَا نَزْدَادُ لَهُ إِلَّا حُبًّا».

وقال بعد الدفن: «إِنَّا قَوْمٌ نَسْأَلُ اللهَ مَا نُحِبُّ فِيمَنْ نُحِبُّ فَيُعْطِينَا فَإِذَا أَحَبَّ مَا نَكْرَهُ فِيمَنْ نُحِبُّ رَضِينَا»[2].

نظرته الإنسانية:

إن نظرة الإمام الصادق عليه السلام الإنسانية تنبثق من نظرة الإسلام إليها في شتى صيغها ومفاهيمها، وإني لا أريد أن أورد بعض المثل في ذلك من سيرة الإمام، بينما أجعل البحث والتعليق لفرص أخرى إن شاء الله تعالى، ذلك لكي نكشف عن مدى تفاني الإمام في حب الإنسانية وصراعاتها وتقدير حقوقها حتى ليجعل الصخر ينحني

(١) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٨.

والنجم والشجر يسجدان إجلالاً وإكراماً لهذه النظرة العظيمة.

١ - أعطى بوابه ومولاه -مصادف- أَلْفَ دِينَارٍ وَقَالَ لَهُ: **تَجَهَّزْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى مِصْرَ** (أي في رحلة تجارية)؛ **فَإِنَّ عِيَالِي قَدْ كَثُرُوا**. قَالَ فَتَجَهَّزَ بِمَتَاعٍ وَخَرَجَ مَعَ التُّجَّارِ إِلَى مِصْرَ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ مِصْرَ اسْتَقْبَلَهُمْ قَافِلَةٌ خَارِجَةٌ مِنْ مِصْرَ فَسَأَلُوهُمْ عَنِ المَتَاعِ الَّذِي مَعَهُمْ مَا حَالُهُ فِي المَدِينَةِ؟ فَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِمِصْرَ مِنْهُ شَيْءٌ فَتَحَالَفُوا وَتَعَاقَدُوا عَلَى أَلَّا يَنْقُصُوا مَتَاعَهُمْ مِنْ رِبْحِ دِينَارٍ دِينَاراً -يعني يجعلون الربح مضاعفاً- فَلَمَّا قَبَضُوا أَمْوَالَهُمْ انْصَرَفُوا إِلَى المَدِينَةِ.

فَدَخَلَ مُصَادِفٌ عَلَى أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام وَمَعَهُ كِيسَانٌ فِي كُلِّ وَاحِدٍ أَلْفُ دِينَارٍ، فَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ! هَذَا رَأْسُ المَالِ وَهَذَا الآخَرُ رِبْحٌ. فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ هَذَا الرِّبْحَ كَثِيرٌ وَلَكِنْ مَا صَنَعْتُمْ فِي المَتَاعِ؟** فحدَّثه مصادف بقصة تجارتهم.

فَقَالَ: **سُبْحَانَ اللهِ! تَحْلِفُونَ عَلَى قَوْمٍ مُسْلِمِينَ أَلَّا تَبِيعُوهُمْ إِلَّا بِرِبْحِ الدِّينَارِ دِيناراً؟** ثُمَّ أَخَذَ أَحَدَ الْكِيسَيْنِ فَقَالَ: **هَذَا رَأْسُ مَالِي وَلَا حَاجَةَ لَنَا فِي هَذَا الرِّبْحِ.** ثُمَّ قَالَ: **يَا مُصَادِفُ! مُجَالَدَةُ السُّيُوفِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ الحَلَالِ**(١).

٢ - كَانَ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام صَدِيقٌ لَا يَكَادُ يُفَارِقُهُ، فَغَضِبَ يَوْماً عَلَى عَبْدِهِ وَسَبَّهُ قَائِلاً: يَا بْنَ الفَاعِلَةِ! أَيْنَ كُنْتَ؟ فلما سمع أبو عبدالله دفع يَدَهُ فَصَكَّ بِهَا جَبْهَةَ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: **سُبْحَانَ اللهِ! تَقْذِفُ أُمَّهُ. قَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّ لَكَ وَرَعاً فَإِذَا لَيْسَ لَكَ وَرَعٌ.**

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٥٩.

فقال الرجل: جُعِلْتُ فِدَاكَ! إِنَّ أُمَّهُ سِنْدِيَّةٌ مُشْرِكَةٌ، فقال عليه السلام: **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ نِكَاحاً**[1].

٣- انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِه وهو يسير مع بعض أصحابه يشيعون جَنَازَةً فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِسْعِهِ لِيُنَاوِلَهُ، فَقَالَ: **أَمْسِكْ عَلَيْكَ شِسْعَكَ فَإِنَّ صَاحِبَ الْمُصِيبَةِ أَوْلَى بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا**[2].

٤- قال بعض أصحابه: أَصَابَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَحْطٌ حَتَّى أَقْبَلَ الرَّجُلُ الْمُوسِرُ يَخْلِطُ الْحِنْطَةَ بِالشَّعِيرِ وَيَأْكُلُهُ، وَيَشْتَرِي بِبَعْضِ الطَّعَامِ، وَكَانَ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام طَعَامٌ جَيِّدٌ قَدِ اشْتَرَاهُ أَوَّلَ السَّنَةِ، فَقَالَ لِبَعْضِ مَوَالِيهِ: **اشْتَرِ لَنَا شَعِيراً فَاخْلِطْهُ بِهَذَا الطَّعَامِ أَوْ بِعْهُ فَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ نَأْكُلَ جَيِّداً وَ يَأْكُلَ النَّاسُ رَدِيئاً**[3].

وقال آخر دخلنا على أبي عبد الله في حائط -أي بستان- له وبيده مسحاة يفتح بها الباب وعليه قميص، وكان يقول: «**إِنِّي لَأَعْمَلُ فِي بَعْضِ ضِيَاعِي حَتَّى أَعْرَقَ، وَإِنَّ لِي مَنْ يَكْفِينِي؛ لِيَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنِّي أَطْلُبُ الرِّزْقَ الْحَلَالَ**»[4].

عبادته وطاعته:

كل من وصف جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بالعمل شفعه بالزهد والطاعة. وإليك بعض كلماتهم في ذلك:

(١) الكافي، ج٢، ص٣٢٤.
(٢) الكافي، ج٨، ص١٦٠.
(٣) الكافي، ج٥، ص١٦٦.
(٤) الكافي، ج٥، ص٧٧.

قال مالك -إمام المذهب-: «كان جعفر لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إما مصلٍّ، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن»[1].

وقال: «ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق عليه السلام علماً وعبادةً وورعاً»[2].

وقال الوزير أبو الفتح الأربلي: «وقف نفسه الشريفة على العبادة، وحثَّها على الطاعة والزهادة، واشتغل بأوراده وتهجده وصلاته وتعبده».

ويروي بعض معاصريه: «رأيت أبا عَبْدِ اللهِ عليه السلام سَاجِداً في مسجد النبي صلى الله عليه وآله فَجَلَسْتُ حَتَّى مَلِلْتُ ثُمَّ قُلْتُ: لَأُسَبِّحَنَّ مَا دَامَ سَاجِداً، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ رَبِّي وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ ثَلَاثَمِائَةِ مَرَّةٍ وَنَيِّفاً وَسِتِّينَ مَرَّةً، فَرَفَعَ رَأْسَه»[3].

«إنه كان يلبس الجبة الغليظة القصيرة من الصوف على جسده، والحلة من الخز على ثيابه، ويقول: نلبس الجبة لنا والخز لكم[4]، ويُرى عليه قميص غليظ خشن تحت ثيابه وفوقه جبَّة صوف وفوقها قميص غليظ».

ويطعم ضيوفه اللحم ينتقيه بيده وهو يأكل الخل والزيت، ويقول: «**إِنَّ هَذَا طَعَامُنَا وَطَعَامُ الْأَنْبِيَاءِ**»[5].

(١) تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ١٠٥.
(٢) تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ١٠٥.
(٣) أعيان الشيعة، ج ٤، ص ١٣٨.
(٤) الإمام الصادق للعلامة المظفر، ج ١، ص ٢٧٠.
(٥) الإمام الصادق للعلامة المظفر، ج ١، ص ٢٧٠.

من بلاغته:

لقد زخرت الكتب الدينية بأحاديث بليغة عن الإمام الصادق عليه السلام، ولك أيها القارئ بعض روائعه تاركين من يريد أكثر من ذلك يراجع كتاب «أشعة من بلاغة الإمام الصادق عليه السلام» للعلّامة الفقيه الشيخ عبد الرسول الواعظي.

«أوصى إلى المنصور الخليفة المعاصر له فقال عليه السلام: عَلَيْكَ بِالْحِلْمِ فَإِنَّهُ رُكْنُ الْعِلْمِ، وَامْلِكْ نَفْسَكَ عِنْدَ أَسْبَابِ الْقُدْرَةِ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ كُنْتَ كَمَنْ شَفَى غَيْظاً وَتَدَاوَى حِقْداً أَوْ يُحِبُّ أَنْ يُذْكَرَ بِالصَّوْلَةِ، وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ إِنْ عَاقَبْتَ مُسْتَحِقًّا لَمْ تَكُنْ غَايَةُ مَا تُوصَفُ بِهِ إِلَّا الْعَدْلَ، وَلَا أَعْرِفُ حَالًا أَفْضَلَ مِنْ حَالِ الْعَدْلِ، وَالْحَالُ الَّتِي تُوجِبُ الشُّكْرَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَالِ الَّتِي تُوجِبُ الصَّبْرَ».

فَقَالَ الْمَنْصُورُ: «وَعَظْتَ فَأَحْسَنْتَ وَقُلْتَ فَأَوْجَزْتَ».

ومن وصية له إلى ولده الإمام الكاظم عليه السلام:

«يَا بُنَيَّ افْعَلِ الْخَيْرَ إِلَى كُلِّ مَنْ طَلَبَهُ مِنْكَ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ فَقَدْ أَصَبْتَ مَوْضِعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ كُنْتَ أَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ. وَإِنْ شَتَمَكَ رَجُلٌ عَنْ يَمِينِكَ ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى يَسَارِكَ فَاعْتَذَرَ إِلَيْكَ فَاقْبَلْ عُذْرَهُ».

قال سفيان الثوري: لَقِيتُ الصَّادِقَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ! أَوْصِنِي.

فَقَالَ لِي: يَا سُفْيَانُ لَا مُرُوَّةَ لِكَذُوبٍ وَلَا أَخَ لِمُلُوكٍ، وَلَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ، وَلَا سُؤْدَدَ لِسَيِّئِ الْخُلُقِ.

فَقُلْتُ: يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ! زِدْنِي.

فَقَالَ لِي: يَا سُفْيَانُ! ثِقْ بِاللهِ تَكُنْ مُؤْمِناً، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ غَنِيًّا، وَأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرْتَ تَكُنْ مُسْلِماً، وَلَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ فَيُعَلِّمَكَ مِنْ فُجُورِهِ، وَشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ[1].

(١) الإمام الصادق عليه السلام للأستاذ الدخيل، ص ٣٢.

المحتويات